# جراكوس بابيف ومؤامرة الأكفاء

## Conspiration des Egaux

---

عندما يتعرض الباحث لجانب من جوانب الإرهاصات الإشتراكية الأولى فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر يجد نفسه فى مواجهة مشكلة رئيسية لا سبيل إلى تجاهلها أو الاعتماد على ما يستطيع أن يضمنه عنها فى سياق بحثه ، وهى مشكلة المصطلحات ، أو بمعنى أوسع « المفاهيم » التى سيضطر إلى استخدامها وما تنطوى عليه من دلالات حديثة قد تؤدى إلى لبس أو حتى إلى خطأ جسيم أحياناً .

والظواهر التى سأتحدث عنها ، والتى بلغت ذروتها فى الثورة التى قادها جراكوس بابيف ونفر من أنصاره ، جزء لا يتجزأ من الثورة الفرنسية ؛ ونحن نعلم أن الاشتراكية بمفهومها الحديث لم تكن قد عرفت بعد فى هذه الفترة — بل ولم تتبلور إلا بعد قرابة نصف قرن من ذلك التاريخ ، ولذلك فإن وصف هذه الظواهر بالاشتراكية يكون غير دقيق ، والأقرب إلى الصواب أن نقول إنها مجرد إرهاصات تنبئ عن اتجاه معين فى المستقبل أو — إذا كان لنا أن نستعمل مصطلحاً حديثاً — هى « جنين » اشتراكى .

وينبغى قبل أن نعرض لهذه الظواهر أن نلقى نظرة على وضع الثورة الفرنسية الكبرى نفسها ، فى علاقاتها التاريخية ، من تطور الفكر السياسى والاجتماعى ، وهل هى ذروة مرحلة البورجوازية أم بداية المرحلة التالية لها .

والواقع أن الجدل الذى ثار بين المؤرخين والمشتغلين بالفكر السياسى ، و بين المفكرين الاشتراكيين بصفة خاصة ، حول هذه النقطة يتصل

اتصالاً مباشراً بمفهوم كل منهم عن معنى الاشتراكية واتجاهاته بصفة عامة(١). فمنهم من تناولها على أنها طليعة الثورة الإشتراكية ، طليعة تزخر فعلاً بالتجارب الاشتراكية ؛ ومنهم من صورها على أنها التعبير العملي عن روح الثورة الفكرية التي اجتاحت أوروبا ، وفرنسا بصفة خاصة ، في القرن الثامن عشر وبلغت ذروتها كتابات الموسوعيين ومفكري الاستعارة الآخرين .

بيد أن الأمر الذي لاجدال فيه هو أن الثورة الفرنسية ثورة طابعها بورجوازي بحت ، بل هي « الثورة البورجوازية الكبرى » التي مهدت السبيل للطبقة الناشطة الجديدة في الاستيلاء على السلطة .

فبين « إعلان حقوق الإنسان والمواطن » الذي وضعته الجمعية العمومية في عام ١٧٨٩ — الذي جعل حق « الملكية حقاً مقدساً لا يمس » — و بين دستور ١٧٩٤ الذي وضعه المؤتمر الوطني فقصر حق الانتخاب على فئة معينة من الشعب أطلق عليها « المواطن الإيجابي » أو « المواطن العامل » وقيد حق شغل الوظائف العامة فجعلها قاصرة على الملاك ، بين هذين الحدثين لا مجال للخطأ في الطابع البورجوازي المحض للثورة التي تمخضت عنهما وفي أن الأحداث الأخرى التي يمكن وصفها بأنها اشتراكية — مما وقع بين هذين الحدثين التاريخيين و بعدهما مباشرة — ليست سوى ظواهر عارضة كان لا يمكن أن يتحقق لها بقاء وكل ما نستطيع أن نقوله فيها هي أنها كانت مجرد استباقات لأحداث مقبلة .

ولعل خير ما يصور لنا هذين الرأيين في علاقة الثورة الفرنسية بالاشتراكية

---

(١) انظر مثلا برنس كروبوتكين الزعيم الفوضوي المعروف في كتابه The Great French Revolution ، والزعيم الاشتراكي الفرنسي جين جوريه في مؤلفه الضخم Histoire Socialiste de La France والذي يعد المجلد الخاص بالثورة الفرنسية فيه من أفضل ما كتب من وجهة النظر الاشتراكية . وأنظر كذلك أندريه لينختنبر La Socialisme et la Rep. Fr. . وكذلك القسم الخاص بالثورة الفرنسية في كتاب كارلتون هيز 'Political and Cultural 'His. of Europe" .

عبارتان لمفكر اشتراكى معروف هو هارولد لاسكى ، إذ يقول[١] :

« يمثل وضع الثورة الروسية فى علاقاتها التاريخية بالقرن العشرين وضع الثورة الفرنسية فى القرن التاسع عشر » . وهى عبارة كما نرى قد لا تعنى أكثر من أنهما مرحلتان فى صراع الإنسان فى سبيل التحرر من قيود واقعة ، ولكل منها طابعها الخاص الذى أملته ظروف العصر الذى تمت فيه .

ولكنه يقول أيضاً فى موضع آخر[٢] :

« إن الرجال الذين وضعوا بذور البلشفية هم السلالة المباشرة لمعاقبة الثورة الفرنسية » . وهى عبارة توحى قطعاً بأن هناك صلة مباشرة بين الأهداف والمبادىء ، بل والأساليب كما سنرى فيما بعد ، التى كانت القوة الدافعة لزعماء الثورتين .

وقد يساعدنا فى تلمس سبيلنا بين هذه الآراء المختلفة أن نتمعن ملياً فى ترتيب أحداث الثورة والأثر الذى تركته فئة معينة بالذات من الشعب الفرنسى فى هذه الأحداث ، وأعنى بها الفئة التى عرفت تارة بإسم « شعب باريس » Peuple de Paris وتارة بإسم الشعب أو « الناس » Le Peuple وثالثة بإسم «جيش الثورة» .L'Armeé de la Rév كما عرفت أحياناً باسم « الطبقة الرابعة » Quatrième Etat وأخيراً بإسم ذى مغزى خاص هو — Les sans Culottes أى الدهماء أو الحفاة ، الذين لا يملكون سوى معاول شقائهم يعملون بها فى هدم أسس المجتمع الذى حرمهم من كل شىء ؛ ( ولم تكن كلمة بروليتاريا قد عرفت بعد ، فهى تمت إلى مرحلة تالية هى مرحلة « البابوفيزم » Babouvisme أى مذهب بابيف ) .

---

(١) أنظر (Laski: Reflecions on the Revolution of our times. p. 4I)

(٢) Op. Cit ، ص ٤٣ .

وهذا البحث هو قصة هذه الفئة Les Sans-Culottes .

لقد بدأت الثورة الفرنسية حقيقة عند ما أحست الطبقة الثالثة (Le Tiers-état) ، التى تمثل البورجوازية الناهضة ، بقوتها وحاجة الملكية إليها بسبب الضائقة المالية، فتحدت أوامر الملك واجتمعت فى ملعب التنس الملكى عندما أغلقت فى وجهها قاعة الاجتماع بعد أن أعلنت رفضها التعاون فى ظل الوضع السابق الذى لا يمنحها حقها الكامل فى إدارة شئون البلاد ، وأصرت على ألا تجلس كل طبقة بمفردها مطالبة باجتماع شامل للطبقات الثلاث وأن يكون التصويت بالرأس ( وبذلك تضمن الأغلبية فقد كان عدد مندوبى الطبقة الثالثة وحدها ٦٠٠ بينما كان عدد مندوبى كل من الطبقتين الأخريين صاحبتى الامتياز «رجال الدين» و « النبلاء » ٣٠٠ فقط ، وكان من بين أفراد هاتين الطبقتين الكثيرين من المتنورين الذين يعطفون على الطبقة الناهضة ويؤازرونها فى مطالبها مثل ميرابو وسييه ) .

إن حادث سقوط الباستيل الذى كثيراً ما يعتبر بداية الثورة الفرنسية لم يكن سوى رمز لشىء آخر غير بداية الثورة الفرنسية ، لقد كان رمزاً لفاعلية دهماء باريس — فاعلية لا يحدوها وعى ولا يوجهها هدف ذاتى ولكن يدفع إليها الجوع والحرمان ، فاعلية فئة تأثرت ولا شك بالأفكار السائدة وإن لم تفهمها .

ولكن البداية التى لامراء فيها لثورة البورجوازية هى حادث ملعب التنس قبل وقوع الباستيل ببضعة أيام ، وهو تعبير عن إحساس الطبقة الثالثة بقوتها الجديدة التى دفعتها حتى إلى رفض مجرد القيام بالإجراءات التمهيدية ( تقديم أوراق اعتماد المندوبين ) قبل الاستجابة إلى طلباتها كاملة ، كما دفعتها إلى إعلان نفسها « الجمعية التأسيسية » . إذ كان الهدف الذى عقدت العزم على تنفيذه هو وضع دستور يتيح لها الوصول إلى القوة العمل بحرية .

وقد نجحت الطبقة الثـالثة وتم لها النصر فى الجولة الأولى عنـدما أذعن لها الملك والطبقتـان الأخريان ، فكان لها ما أرادت وشرعت تعمـل على تحقيق أهدافها بوضع « إعلان حقوق الإنسان والمواطن » — فما هى هـذه الحقوق التى تصورها ممثلو الطبقة البورجوازية فى ذلك العهد كما جاءت فى الإعلان : « الحرية وحق الملـكية وحق الأمن وحق مقاومة الاضطهاد ...وحق كل مواطن فى المشاركة شخصياً أو بواسطة ممثليه فى وضع القوانين التى يجب أن تـكون متماثلة بالنسبة للجميع ... » .

ونحن نعرف الحرية التى كانت تهدف إليها هذه الطبقة . . . أنها « حرية التعامل » Laissez Faire التى تعتبر أساس النظام البورجوازى الرأسمالى ...حرية الطبقة الرأسمالية فى تنمية ثرواتها وتحقيق رسالتها التاريخية فى تثبيت دعائم حق الملـكية الخاصة . . . أما حق الأمن فهو كما نعرف أيضاً دعامة الاستقرار الذى يتطلبـه ازدهار رأس المال .

لقد كانت الطبقة الثالثة تتـكلم باسم البورجوازية ، وباسمها وحدها ، وتحـكم بمعاييرها . وسنرى كيف فسرت عبارة « حق كل مواطن فى المشاركة شخصياً أو بواسطة ممثليه فى وضع القوانين » بما يتفق وهذه المعايير .

ثم يرتفع الستار عن فصـل آخر من هذه المرحلة كانت البطولة فيه لقطاع آخر من الأمة الفرنسية هم من أطلقنا عليهم « الدهماء» Les Sans-Culottes عندما دفعهم الشقاء والمعاناة والجوع إلى ماعرف فى التاريخ باسم « زحف الجوع» Hunger Drive من باريس إلى فرسايل فى أكتوبر عام ١٧٨٩ وطالبوا بعودة الملك إلى باريس ومعه الجمعية الوطنية ، وكان لهم ما أرادوا فعادوا ومعهم الملك وأسرته يصيحون — « معنا الخباز وزوجة الخباز وسنحصل على الخبز فى باريس » . وهذا ما كانت الجماهير تريده فعلاً . . . الخبز .

وصارت باريس مرة أخرى مقر الحكم ؛ وكانت باريس بحكم الأمر الواقع تحت سيطرة دهمائها ، وبذلك بدأت مرحلة ثانيـة فى الثورة الفرنسية ظهر فيها بوضوح أثر تلك الجموع التى لم تكن تعرف لنفسها هدفاً سوى رغبـة جارفة فى تحسين أحوالها ورفع ما تعانيه من ظلم بتغيير الأوضاع القائمة ، فتركت قيادها للطبقة الوسطى تستخدمها فى تحقيق مآربها .

وفى سنة ١٧٩١ تم وضع أول دستور مكتوب فى المجتمعات الحديثـة — باستثناء الدستور الأمريكى الذى سبقه ببضع سنوات ولم يوضع موضع التنفيذ إلا بعد ذلك — دستور يقوم على مبدأ الملـكية الدستورية المقيدة على نمط الأفكار التى كانت سائدة فى انجلترا وقتـذاك ؛ وهى المبادىء والأفكار التى ترعرعت فى ظلها البورجوازية الانجليزية .

وقد بدا فى هذا الدستور بوضوح ما تحسه الطبقة الصاعدة الجديدة من عدم ثقة تجاه الطبقـة الدنيا فى طريقة تفسيرها « لحق المواطن فى المشاركة فى وضع القوانين » ، إذ اعتبرت المواطن الذى يتمتع بهذا الحق هو الذى يدفع قدراً معيناً من الضرائب كما جعلت انتخاب المجلس التشريعى على درجتين إمعاناً منها فى إبعاد عملية سن القوانين عن متناول فئة الدهماء .

وإلى هنا نستطيع القول أن الثورة البورجوازية حققت أهدافها بانتزاع السلطة من أيدى الطبقات الحاكمة القديمة وابعادها عن أيدى الدهماء ، ولو كانت الثورة بورجوازية خالصة حقاً لا نتهى الأمر عند هذا الحد وسارت البلاد فى طريقها الذى رسمته لها الطبقة الصاعدة فى ظل النظام الرأسمالى على أساس تسوية عام ١٧٩١ . ولـكن قوة الدفع الثورية استمرت وبدأت تتجه البلاد بسرعة إلى راديكالية متطرفة ، فتخلت الملـكية عن مكانها للجمهورية وتعالت بعض الأصوات تندد بالتفرقة التى فرضها الدستور بين المواطن « العامل » أو « الايجابى » والمواطن الذى لا يملك والذى حرم من حق الانتخاب لأنه لا يملك .

كما بدأت الأنظار تتجه إلى الحالة السيئة والشقاء الذى تعيش فيه كتلة عمال المدن التى تعانى الفقر المدقع والتى ، إذ حرمت من التمثيل فى أداة الحكم ، لا تستطيع أن تسمع صوتها بالطريق الدستورى . كما بدأت الأذهان تتنبه إلى حالة القلق والسخط السائدين بين هذه الكتلة غير المتميزة من البشر وما لهذه الحالة من أثر بالغ الخطورة على الاستقرار الجديد الذى تنشده البورجوازية .

ومنذ هذه اللحظة سنرى وقع هذه المشكلة الجديدة وأثرها فى اتجاه الأفكار — بل والأحداث نفسها — وسنتبين كيف تكون مفهوم البروليتاريا بمعناها الحديث .

والواقع أن هذه الفئة Les Sans-Culottes حرمت تماماً من أى نصيب فى مكاسب الثورة ؛ فالبورجوازية نالت دستورها والفلاحون حصلوا على نصيبهم من الكعكة ، أما كتل العمال التى زحفت على باريس وغيرها من المدن الفرنسية الكبرى فقد نالت وعوداً بحقوق سياسية واقتصادية انتهت إلى لا شىء تماماً .

ومنذ الآن فصاعداً سنجد أيضاً أن الطبقة الدنيا فى المجتمع الفرنسى — التى كانت تمثلها قبل عام ١٧٨٩ « الطبقة الثالثة» Le Tiers-Etat — قد تغيرت فى تكوينها ومشاعرها فتحولت إلى كتلة جماهيرية يقودها بعض راديكاليى الطبقة الوسطى .

وبدأ هذا الاتجاه يعبر عن نفسه فى نشاط الأندية السياسية التى انتشرت فى باريس وتكونت لها فروع فى معظم مدن فرنسا . وكان أقرب هذه الأندية إلى الاتجاه الجديد هو الذى عرف باسم نادى اليعاقبة Jacobins — الذى أشرنا إليه فى قول هارولد لاسكى من قبل — وكان هذا النادى قد بدأ بجماعة إسمها « جمعية أصدقاء الدستور » من بين أعضائها سييه وميرابو ولافاييت ولكنها لم تلبث أن تحولت إلى منظمة راديكالية متطرفة تحت زعامة روبسبير .

وظهرت المطبوعات والنشرات التى تحمل بين طياتها مفاهيماً نستطيع أن نقول مطمئنين أنها فى مجموعها تمثـل « جنيناً » اشتراكياً أو استباقاً للمفاهيم الاشتراكية الحديثة .

فنجد مثلا صحيفة مارا "L,Ami du Peuple" الذى أخذ يدعو فيها إلى عدم التشبه بانجلترا التى تحكمها قلة من الأثرياء « تستخدم مفهوم الحرية لمصلحتها الطبقية الخاصة مدعية أنها تمثل الأمة كلها » ، ويؤكد أن « الاصلاح الحقيقى لا يمكن أن يتم إلا بواسطة عمل مباشر من جانب الشعب نفسه » . ولعل هذه هى أول مرة فى المجتمعات الحديثة فى حدود ما نعلم ، يوجه فيها الهجوم إلى الطبقة الصاعدة الجديدة من جانب من يتحدث باسم « الشعب » وينكر عليها دعواها فى أنها تمثل الأمة كلها .

وقام دانتون وديمولان — شريكا ماراً فى نادى الكوردلييه — على رأس حملة توعية لتوجيه جماهير باريس إلى المطالبة بحقوقها السياسـية — لا على أن هذه الحقوق فى ذاتها هدف ولـكن على أنها السبيل للتخلص من الغبن الاقتصادى الذى تعانيه . وهذا أيضاً اتجاه وإن لم يكن جديداً فى ذاته إلا أنه جديد تماماً فى ضوء ملابساته .

وتحت ضغط هذه القوى بدأت الثورة الفرنسية تتجه إلى هدف جديد هو التسوية الاجتماعية بين جميع فئات الشعب الفرنسى وعدم الوقوف عند حد المطالبة بالمساواة السياسية وحدها .

ولـكن هل يمـكن أن يستمر هذا الاتجاه ؟ وهل أسقط فى يد القوى المضادة الأخرى ؟ .

لقد كانت هناك قوتان رئيسيتان تقاومان هـذه الاتجاه . أولاً الرجعية الأرستقراطية ، داخل فرنسا وخارجها ، وكانت لاتزال تعمل جاهدة على استعادة

---

(١) Hayes: Op. Cit p 620.

النظام القديم Ancien Régime والقضاء على كل التغييرات التى استحدثتها الثورة الفرنسية ، ولا تهمنا هذه القوة فيما نحن بصدده ، فقد كانت عاملاً بالياً obsolete فقد مقوماته الاقتصادية والفكرية ، وكانت كل جهودها مقضياً عليها بالفشل حتماً .

أما القوة الثانية فكانت الطبقة الجديدة الصاعدة التى تربعت على عرش السلطة وأحرزت الأغلبية المطلقة فى الجمعية التشريعية الجديدة بحيث أصبحت هذه الجمعية هى معقلها ومصدر قوتها . ونبدأ الآن فى مرحلة ثالثة من مراحل الثورة الفرنسية .

كانت الجمعية التشريعية مكونة من ٧٥٠ عضواً مقسمين إلى ثلاث فئات : الملكيين Feuillants ويمثلون اليمين ، والجيروند ويمثلون اليسار ، والوسط الذى كان ينضم مرة إلى هذه المجموعة وتارة إلى تلك عند إلى أخذ الأصوات . وكانت هذه المجموعات الثلاث من أقصى يمينها إلى أقصى يسارها تمثل الطبقة الوسطى وحدها .

فأين ممثلو الطبقة الدنيا الجديدة ! وأين المعبرون عن الاتجاهات التى أتينا على ذكرها ! لم يكن لهم فى الحقيقة أثر فى الجمعية ؛ ومن ثم كان لابد من حدوث شىء ما تعبر به هـذه الروح عن نفسها ما دامت قد حرمت حق التعبير بالطريق الدستورى .

وفى ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ حدث ما كان متوقعاً إذ هاجم شعب باريس تحت زعامة دانتون الجمعية التشريعية — وكان الشعب قبل ذلك قد هجم على التويلرى وأرغم الملك على الالتجاء إلى الجمعية التشريعية فى طلب الحماية — ثم أرغم من بقى من النواب فيها على إصدار قرار بإيقاف الملك ودعوة البلاد إلى انتخاب مؤتمر وطنى ، على أساس حق الانتخاب المباشر للجميع ، لوضع دستور جديد .

وكان لشعب باريس ما أراد ، فأجريت الانتخابات فوراً واجتمع المؤتمر الجديد فى ٢٠ سبتمبر ، وفى ٢٢ سبتمبر أعلنت الجمهورية وبدأت الروح الجديدة تنفس عن وجودها عن طريق هذه الهيئة الجديدة .

فما هو طابع المؤتمر الوطنى الجديد الذى تم تأليفه على أساس الانتخاب المباشر؟.

عاد إليه حوالى ٢٢٠ من الجيروند بزعامة بريسو وكوندرسيه وتوماس بين ، وكان الجيروند فى الجمعية السابقة يمثلون أقصى اليسار ، فإذا بهم فى المؤتمر الوطنى يمثلون اليمين . أما اليسار فكان يمثله مائة من اليعاقبة الذين عرفوا باسم الجبليين بزعامة دانتون وروبسبير وكارنو وسان جوست . وظلت الأغلبية فى الوسط فانضمت فى بادىء الأمر وتحت الضغط الشعبى إلى اليسار ثم عادت فانضمت إلى اليمين بعد انقلاب Thermidor والقضاء على روبسبير وزعماء الارهاب الآخرين فى يوليو سنة ١٧٩٤ .

بيد أن هذا الاتجاه الواضح إلى اليسار فى المؤتمر فى أول الأمر لم يعن مطلقاً انقلاباً فى مشاعر البلاد وظروفها ، فالأغلبية الساحقة كانت من الفلاحين الذين استفادوا فعلاً من الثورة وأصبح يهمهم استقرار الأمر للطبقة الحاكمة الجديدة — التى كان يمثلها الجيروند والوسط — حتى يتفرغوا لاستثمار ما حصلوا عليه . ولذلك ظل الطابع البورجوازى هو الغالب على المؤتمر الجديد برغم أن اليسار المتطرف استطاع السيطرة على مقاليد الحكم طوال فترة الإرهاب بمساعدة شعب باريس . ومن ثم فأننا نستطيع اعتبار هذه المرحلة مجرد فترة عابرة لا تمثل حقيقة الوضع .

ولكن الصراع بين الجيروند والجبليين فى المؤتمر الوطنى لم يكن مجرد صراع على السلطة بين الطبقة الوسطى يساندها الفلاحون من ناحية وباريس التى تسيطر عليها كتل الدهماء من ناحية أخرى ؛ بل كان فى الحقيقة صراعاً بين المدافعين عن قدسية حق الملكية واتجاه جديد نحو السير بالثورة الفرنسية إلى نهايتها المنطقية بالانتقال من مرحلة المساواة القانونية إلى مرحلة المساواة الاجتماعية .

ولا يعنى هذا أن الإجراءات شبه الاشتراكية التى تمت فى عهد الارهاب ( مثل قوانين الحد الأعلى لأسعار السلع وتحريم التخزين ومصادرة أموال الأثرياء وقانون المشتبه فيهم ) وليدة هدف اشتراكى محدد ، أو أن دستور عام ١٧٩٣ ، الذى وأدته الطبقة الوسطى فى مهده ولم تسمح بوضعه موضع التنفيذ قط ، جاء بناء على مخطط اشتراكى مرسوم سبقا .

بل أنه مما لاجدال فيـه أن هذه القوانين ما كانت لتصدر لولا ضغط الظروف الحربية من ناحية وسيطرة شعب باريس وزعمائه على المؤتمر الوطنى من ناحية أخرى . ولذلك استطاع ممثلو الطبقة الوسطى فى المؤتمر إلغاء جميع هـذه القوانين التى اعتبرت قوانينا استثنائية بمجرد أن استرجعوا سيطرتهم واستولوا على السلطة ثانية بعد القضاء على روبسبير وزمرته — ومن قبله دانتون وديمولان.

وكان من الطبيعى أن يثور شعب باريس بعد القضاء على من اعتبرهم زعماءه ، وجاءت ثورة بابيف تعبيراً جزئياً عن هذه الثورة ؛ واعتبرت أول محاولة عملية للاستمرار بثورة عام ١٧٩٩ إلى نهايتها المنطقية .

ولسنا فى حاجة إلى الاسهاب فى تفاصيل ثورة بابيف أو فى الحديث عن تاريخ حياة بابيف نفسة فجميع المؤلفات فى الفـكر الاشـتراكى وتاريخ الثورة الفرنسية حافلة بهذه التفاصيل . ويكفى هنا أن نقول أن بابيف كان ينتمى إلى الطبقة الدنيا فى المجتمع الفرنسى ، ولد فقيراً وعانى الضيق والشقاء السائدين ، ثم عمل مسجلاً لأراضى النبـلاء وكان من مهمته أن يقوم بتحصيل المـكوس الاقطاعية القاسية من الفلاحين ، وهى مهمة عافتها نفسه لما شهد فيها من مظالم وافتئات على هؤلاء الفلاحين . ولهذا تحول ، عندما نشبت الثورة ، إلى ثورى متحمس واشتغل بالصحافة وساعدته دراسته السابقة لفلاسفة القرن الثامن عشر على تـكوين آراء خاصة سنرى فيما بعد كيف حاول تطبيقها . ولـكننا نعلم أنه كان قد بدأ يتجه اتجاهاً خاصاً قبل ذلك من خطاب له ، اكتشف مؤخراً ، إلى

سكرتير أكاديمية آراس فى عام ١٧٨٧ ؛ وفى هذا الخطاب نستطيع أن نتبين البذور الاشتراكية الأولى فى تفكيره . وفى عام ١٧٨٩ اشترك فى « كراسة مطالب » Cahier des Doléances دائرته الانتخابية ( روان ) وطالب مثل الأغلبية الساحقة من الكراسات الأخرى بإلغاء الامتياز والأوضاع الاقطاعية ولكنه لم يأت فيها بجديد .

وفى أواخر عام ١٧٩٤ أصدر صحيفة ( جورنال دى لاليبرتيه دى بريس ) ثم غير إسمها إلى ( تريبون دى بيبل ) وأخذ يدعو فيها إلى تطبيق المساواة الاقتصادية وعدم الوقوف عند مجرد المساواة القانونية وحدها لأن « المساواة الاقتصادية أولى بالاهتمام ، فالتفاوت الاقتصادى الكبير أسس البلاء ». ولا شك فى أن هذه الأفكار إن لم تكن اشتراكية بالمعنى الحديث المحدد فانها على الأقل متقدمة فى اتجاه اليسار عن كل ما رأيناه حتى الآن عند زعماء الثورة الفرنسية ، خاصة وقد اقترنت بمحاولة تطبيقها عملياً . إذ أن هذا هو ما شرع بابيف يعمل من أجله .

فى العدد ٣٣ من التريبون أعلن بابيف للعالم طوبياه الاشتراكية الجديدة « جمهورية الأكفاء » (République des Egaux) التى تقوم على المساواة الكاملة بين جميع أعضاء المجتمع باعتبارهم أكفاء اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ودعا إلى تطبيق دستور عام ١٧٩٣ باعتبارة السبيل إلى تحقيق مجتمعه .

ولكن الثورة كانت ، كما أشرنا ، قد غيرت اتجاهها بعودة الجيروند يساندهم المعتدلون إلى السلطة والقضاء على اليعاقبة بإعدام روبسبير وزملائه . بيد أن الظروف هيأت لأفكاره تربة صالحة : إذ بدا السخط يعم بين الطبقات الدنيا وقد تحطمت آمالها تماماً فى أى إنقاذ سريع بسقوط زعمائها .

واجتمع حول بابيف لفيف من الساخطين كونوا « جمعية الأكفاء » وانضم إليهم بعض فلول اليعاقبة وأنشأوا « نادى البانثيون » الذى أغلقته حكومة « الإدارة » فى أوائل عام ١٧٩٦ ؛ فتحول بابيف وزمرة من زملائه إلى نشاط الأقبية وأصدروا صحيفة سرية باسم « المدافع عن خمس وعشرين مليوناً من المضطهدين » .

وفى صبيحة أحد أيام مارس صحا سكان باريس ليروا على الجدران ملصقات تحمل عنوان « بيان الأكفاء » من « تحليل مذهب بابيف Babouvisme » وانتشرت الاشاعات فى باريس بأن جنود بعض الحاميات على وشك التمرد تضامناً مع الشعب .

وجاء فى مقدمة البيان(١) « إن الثورة الفرنسية ليست سوى المرحلة الأولى فى ثورة أخرى أكبر منها بكثير ستكون آخر الثورات » وفى مكان آخر منه جاء « ألغوا الملكية الفردية الزراعية فالأرض ليست ملكاً لأحد من الناس » . ثم طالب بإعادة دستور عام ١٧٩٤ الذى « يضمن للشعب المساواة الاجتماعية الكاملة » . وكلها مفاهيم كما نرى أصبحت منذ ذلك الوقت جزءاً لا يتجزأ من التراث الاشتراكى .

وقررت حكومة « الإدارة » المبادرة بالعمل ، وكانت قد تجمعت لديها أدلة على مؤامرة يستعد بابيف للقيام بها هو وبعض زملائه ( الذين كان من بينهم بعض رجال الجيش أحدهم ضابط كان جاسوساً للحكومة ينقل أخبار الجماعة أولاً بأول إلى السلطات ) فألقت القبض على بابيف وعدد كبير من أتباعه .

وأعدم زعيما المؤامرة ، بابيف وداريته ، ونفى كل من سيلفان مارشال

---

(١) ص ٢١ Cole, A History of Socialist Thought, Vol. I

( الذى وضع بيان الأكفاء ) وبووناروتى ( الذى عاش ليكتب تاريخ مؤامرة الأكفاء . وظل الاشتراكيون الثوريون يعتبرون كتابه انجيلهم الذى يرجعون إليه )

ويتبين من الوثائق التى يمكن الاعتماد عليها فى السجلات الخاصة بمحاكمة بابيف ورفاقه أنهم كانوا يريدون الاستيلاء على السلطة بواسطة مجموعة صغيرة من الزعماء الثوريين وينشئون حكماً ثورياً يعتمد على أتباعهم فى الجمعيات السرية الباريسية مع العمل بسرعة على انتخاب جمعية وطنية جديدة على أساس الانتخاب المباشر للجميع كما جاء فى دستور عام ١٧٩٣ . كما عقدوا العزم على الشروع فوراً ودون انتظار حتى تجتمع الجمعية الوطنية فى اتخاذ إجراءات المصادرة على نطاق واسع وإعادة توزيع الأموال المصادرة على أساس من التملك المشترك فى السلع واستعمالها على قدم المساواة بين الجميع وإلغاء حق الميراث فوراً بحيث تتحول الملكية الخاصة كلها فى جيل واحد إلى ملكية مشتركة .

وجلى أن بابيف وزمرته كانوا يوجهون قسطاً ضخماً من اهتمامهم إلى عمال المدن ، وهى ظاهرة جديدة تماماً لم نقابلها فى أى مجتمع جديث من قبل — وليست هذه هى الظاهرة الجديدة الوحيدة فى حركة بابيف .

إن التمرد الذى قام به بابيف لم يحقق كما نعلم شيئاً من أهدافه المباشرة ، فقد أخفق التمرد — وكان لابد أن يخفق — حيث أن الظروف التى يتطلبها نجاحه غير متوفرة ؛ أوعلى حد ماذهب إليه كارل ماركس كان لابد لمثل هذه المحاولات الأولى فى الكفاح المباشر Direct Action أن تفشل بالضرورة لأن البروليتارية كانت لاتزال جنيناً فى رحم المجتمع ولم تكن الظروف المادية لميلادها قد وجدت بعد .

بيد أن أهمية مؤامرة بابيف لاترجع إلى ما حققته فعلاً ، بل إلى أنها كانت طليعة للحركات التى جاءت بعدها فى سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨

وسنة ١٨٧٠ ثم أخيراً فى سنة ١٩١٧ إذ أنها أول علامة على أن الصراع السافر انتقل إلى صعيد جديد بين قوتين تختلفان عن طرفى النزاع الذى وضعت الثورة الفرنسية الكبرى حداً له فى فرنسا ؛ إنها علامة — إذا كان لى أن أستعير مفهوماً من مفاهيم المادية الجدلية — على تكوين مركبة Synthesis جديدة من قضية ونقيضة Thesis & Antithesis جديدتين ، وأن المسرح قد أعده لقصة صراع طبقى جديد . كما أن هذه المؤامرة منحت الفكر الاشتراكى إلى جانب ذلك ثلاثة مفاهيم أساسية تعتبر اليوم جزءاً لا يتجزأ من النظرية الاشتراكية ، ونستطيع أن نرى آثار هذه المفاهيم منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى اليوم .

فهناك أولاً فكرة القلة المجاهدة المختارة التى تقود الجماهير إلى المجتمع الاشتراكى وتفرض ديكتاتورية البروليتاريا[1] التى تعتمد على الجماهير الكادحة وحدهم وتعمل من أجلهم . وقد تلقف هذه الفكرة بلانكى وأنصاره وتحولت على أيديهم إلى مذهب « القلة الواعية » التى لعبت دوراً كبيراً فى النظرية السندكالية الفرنسية حتى الآن .

ونحن نعلم أنه برغم أن ماركس عدل عن فكرة القلة المجاهدة المختارة التى تقود الجماهير وتدربها ، إلى فكرة ضرورة أن تكون البروليتاريا كلها واعية وإلا فإن زعماءها يظلون عاجزين بلا سند ، فإن لينين وتروتسكى طبقا الفكرة الأولى حرفياً وبحذافيرها فى ثورة عام ١٩١٧ ؛ ولا يغير من هذا أن كتاب الشيوعية الحديثين نفوا مراراً وتكراراً أن لينين مدين بشىء لبلانكى .

وهناك ثانياً مذهب «العمل الثورى المباشر» Revolutionary Direct

---

(١) ايسايا برلين « كارل ماركس » (١٩٥٦) ص ١٤ و ١٠٠ و ١٧٣ .

Action بواسطة الجماهير نفسها باعتباره الأسلوب الوحيد الذى يمكن عن طريقه تحقيق المجتمع الاشتراكى ، وهو المذهب الذى تلقفه أيضاً بلانكى وتاربيس وانتقل إلى انجلترا عن طريق أوبرايان — زعيم القطاع المنادى باستعمال العنف من العرائضيين Chartistes — إذ قام بترجمة كتاب بووناروتى عن ثورة بابيف إلى الإنجليزية وجعل من نفسه داعية لمذهب بابيف فى إنجلترا .

وهناك أخيراً مذهب صراع الطبقات الذى كان بابيف أول من أدخله عملياً فى الحركات الاشتراكيـة . ونحن نعلم أن فكرة صراع الطبقات كانت موجودة قبل الاشتراكية الحديثة بقرون ، ولكن الذى لا جدال فيه أن أول صراع طبقى يظهر سافراً على مسرح التاريخ كان على يد بابيف وزملائه . كما أن فكرة البروليتاريا كظرف فى الصراع ارتبطت دائماً ببابيف(١) .

ويقول كول ، فى موسوعته الاشتراكية الضخمة التى ضمت جميع مذاهب الفكر الاشتراكى الحديث ، أن أول أصحاب المشروعات الاشتراكيـة ممن يعتد بهم هو : جراكوس بابيف ، لأنه بالرغم من أن كلمة اشتراكية نفسها لم تكن قد عرفت بعد فى أواخر القرن الثامن عشر فإن لبابيف حقاً واضحاً فى أن يعتبر أول مفكر اشتراكى وضع نفسه على رأس حركة ذات أهداف اشتراكية بالمفهوم الحديث ، ومن بابيف انحدرت سلسلة طويلة من الاشتراكيين الذين اعتبروا التآمر الثورى وسيلة تحقيق المجتمع الاشتراكى . وما من شك فى أن فكرة بابيف تركت أثراً عميقاً فى اتجاه الحركات التاليـة وبخاصة فى فرنسا ، بل وأن جميع حركات المساواة الكاملة والشيوعية فى فرنسا تدعى ، على حد ما ذهب إليه الأستاذ دافيد تومسون فى مؤلفه القيم عن مؤامرة بابيف أنها تنحدر بصورة

---

(١) أنظر كول Op. Cit ، ص ١٣ .

أو أخرى من مؤامرة بابيف ، وأن الثوريين والجمعيات السرية فى أوروبا عامة طوال القرن التاسع عشر تعتبر كتاب بووناروتى عن المؤامرة انجيلها .

وهكذا فإن الثورة الفرنسية — ثورة الحرية والمساواة والإخاء — منحت البورجوازية الصاعدة الحرية فى السيطرة على مقدرات المجتمع الفرنسى وتكديس الثروات الهائلة ، ومنحت المالكين المساواة — أى المساواة فيما بينهم أمام القانون . . . ولكنها لم تمنح الكادحين سوى الأخاء وتقليد بابيف الثورى .

عبد الكريم أحمد